

الفصل الثالث والعشرون

لبثت «سميحة» في دار أبيها عامين لم تلقَ فيهما إلا خيرًا، ولم تذق فيهما إلا هناءة، رغد كثير لم تألفه في عُزلتها تلك بين أمها وأختها ونسيم من جهة، وجدها القاسي الجافي الغليظ من جهة أخرى، وفي حياتها تلك التي لم تكن ضيقة كل الضيق ولكن لم تكن واسعة كل السعة، وإنما كانت شيئًا بين ذلك، فيه الرخاء أحيانًا وفيه الشدة والعسر أحيانًا أخرى. في تلك الحياة لم تعرف سميحة حنان الأب ولا حنو الأم، وأنَّى لها حنان الأب ولم يكن أبوها يراها إلا بين حين وحين، ولم يكن يراها إلا الوقت القصير يبسم لها ويُلقِي إليها كلمات حلوة لعلها لم تكن تخلو من تكلف، ثم ينصرف عنها وقد ألقى في يدها نصف القرش أو المليمات، وأنَّى لها حنو أمها وقد كانت مريضة أكثر الوقت، لا تحفل بابتئنها، وربما نسيت في بعض الأوقات أنَّ لها ابنتين!

وفي تلك الحياة لم تعرف سميحة فرحًا ولا مرحًا ولا ابتهاجًا، وأنَّى لها ذلك وقد كانت مقصورة أو كالمقصورة على عشرة أختها جلنار، وبين أمها البائسة وخادمها السوداء، لا تكاد تختلط بصبيان الدار من أعمامها وعماتها الصغار؛ فقد كان يُحال بينها وبين ذلك، يرى أبوها في مخالطتها لهم شرًا عليها، ويرى جدُّها أن في مخالطتها لهم شرًا عليهم، فأما في حياتها الجديدة فقد تغير كل شيء: أمها بائسة سقيمة من غير شك، ولكنها لا تكاد ترى أمها فضلًا عن أن تُطيل المقام معها، وخادمها السوداء كعهدها تلقاها بابتسامها العابس، ولكن في الدار أشخاصًا آخرين وكائنات أخرى وأشياء أخرى لم تكن تألفها من قبل، فالدار فسيحة مترامية الأطراف كثيرة الحجرات واسعة الأفنية، وفيها إخوتها وقد بلغوا الآن خمسة، ويوشكون بعد قليل أن يبلغوا ستة، منهم من شبَّ حتى لم يكد يبقى بينها وبينه فرق في السن والقد، ومنهم من لا يزال صبيًّا فيه كثير من المرح والفرح، وفيه كثير من الحركة والنشاط، ومنهم من لا يزال طفلًا يحبو أو